المحاضرة العاشرة : تابع الفارابي واستشكالاته الفليسفية

نظرية المعرفة عند الفارابي وعلاقتها بنظرية الفيض –الاتصال-

مقدمة: أن الجواب عمى المشكلة الأنطولوجية: كيف يمكن أن نفسر التنوع والتغير في الوجود الذي اقترحته و المدرسة المثالية مثل جواب ارسطو) المحرك الذي ال يتحرك (أو بجواب الفارابي) واجب الوجود بذاتو (؟؟ قد أثارت مشكلة جديدة وهي مشكلة معرفية تقوم على السؤال التالي: إذا كانت العلة الاولى لموجود تختلف بالماهية عن الوجود المادي إذا كيف يمكن معرفتها؟؟. كيف يمكن لمعقل الإنساني أن يدرك العالم المفارق لعالمنا الأرضي ؟؟ .وقد تعددت الإجابة عمى هذا السؤال المعرفي. وكان أشهر هذه الإجابات هو جواب أفلاطون ونظريته القائلة بالتذكر حيث قالت هذه النظرية أن النفس الإنسانية كانت قبل حلولها بالجسد تعيش في عالم المثل وبعد اتصاليا بالبدن) الجسم (نسيت عالمها ولكن من خلال التعلم وممارسة الجدل والعناية بالعلوم الرياضية والهندسية يمكن للنفس أن تتذكر تلك المعقولات. والجواب الثاني كان لأرسطو القائل بالمنهج البرهاني الذي يمكنه الاتصال بالعقل الفعال وإدراك هذه المعقولات، ولكن النصوص الأرسطية حول العقل الفعال و ماهيته ووجوده، فيها غموض كثير . هل هو مرتبة من مراتب العقل الإنساني وجزء من عالمنا أم هو عقل إلهي ينتمي لمعالم المفارق؟؟. إختلف شراح أرسطو إلى مدارس حول تفسير نصوصه في هذا الجانب . أما الجواب الثالث المهم على ىذا التساؤل ىو جواب المدرسة الصوفية والذي ينقسم بدوره إلى تيارين هما : -

- المدرسة الصوفية التقليدية التي ترى أن روح الإنسان وقواه العقلية بالذات ىي من طبيعة العالم المفارق ولكن بسبب امتزاجها بالبدن وانشغالها بلذاته الحسية خشنت طبيعتها وصار من الصعب عمليا الاتصال بالعالم المفارق ورؤيته رؤية مباشرة . ويمكنها بالخلوة ومحاربة شهوات النفس وتزكيتها بالعبادات والذكر من التحرر شيئا فشيئا حتى تشرق عليها تلك المعقولات .

والمدرسة الثانية هي المدرسة الإشراقية التي لا تختلف في أصولها الفلسفية عن المدرسة الصوفية التقليدية من حيث اعتقادها بطبيعة النفس وإمكانية اتصالها

المباشر بذلك العالم المفارق، ولكنها تختلف بالمنهج والطريقة، فالمدرسة الإشراقية ترى أن الخلوة والرياضة النفسية لوحدها، غير كافية في تحصيل هذه المعارف بل تحتاج بدايةً إلى تحصيل المعارف البرهانية، فيجب عمى الإنسان أن يبدأ بتحصيل العلوم البرهانية كميا ومن ثم يبدأ بالخطوة الثانية وهي الخلوة والانقطاع والرياضة الجسدية والرّوحية.

يعتبر الموضوع المعرفة الأساسي في الفلسفة القديمة والوسيطة هو العالم المفارق البريء من المادة. كيف يمكن معرفته ؟؟. والبحث عن منهج وطريقة مناسبة لتحصيل المعرفة بذلك العالم لا يلغي طبعا عند أغلب الفلاسفة موضوعات المعرفة الأخرى وهي المعرفة الحسية والمعرفة العقلية) العلوم الرياضية والهندسية ومبادئ العلم الطبيعي (بل يكاد لا يختلفون حول إمكانية تحصيلها ولا حتى بمنهج تحصيلها إلا بالحدود التي يختلفون فيها حول منهج وطريقة تحصيل المعرفة بالعالم المفارقة وما يمكن أن يؤسسه هذا المنهج أو يفترضه من ضرورات قد تنعكس على منهجهم في تحصيل المعرفة الحسية أو العقلية، كما سنرى ذلك مع الفارابي .

وعليه أن موضوعات المعرفة بعامة هي ثالثة موضوعات: (المعرفة الحسية و المعرفة العقلية وهي العلوم الرياضية والهندسية ومبادئ العلم الطبيعي. وهي معارف تجريدية عن عالم المحسوسات أي ما يجرده العقل من معقولات عن العالم المادي الحسي –.العالم المفارق البريئ من المادة أي لم يكن في مادة أصلاً بحسب كالم الفارابي نفسه وهو عالم ما فوق فلك القمر .السؤال المهم أين يمكن أن نضع الفارابي بين كل هذه النظريات المعرفية.؟ .ألا يختلف الفارابي مع الفلاسفة الآخرين في تصنيف موضوعات المعرفة إلى المراتب الثالثة (الحسية والعقلية وما صار يعرف عند الصوفية بالمعرفة الذوقية وهي موضوعات العالم البريء من المادة. كما إنه وظف أغلب المفاهيم المعرفية المتداولة في مجال المعرفة مثل النفس وقواها والعقل ومراتبه، ولكنه منحها معان ودلالات جديدة استمدها من داخل نسقه الفلسفي الجديد .

النفس وقواها عند الفارابي : يرى الفارابي أن النفس الإنسانية تتألف من خمسة قوى هي : -القوة الغاذية هي ما به يتغذى وينمو الإنسان.– القوة الحاسة .– القوة المتخيلة. - والقوة العاقلة. - فهي المعنية بالإدراك والمعرفة أمّا النزوعية فيها تكون الإرادة . والقوة العاقلة هي رئيسة لكل هذه القوى الأربعة الباقية وكلها خادمة لها . يرى الفارابي ان حصول المعارف للإنسان، يكون بدايةً من جهة الحواس. ويقول ان ليس هناك معرفة بدونها ولذلك فدورها حاسم في تحصيل المعرفة. بل من فقد حاسة ما فقد علما ما، فمن فقد البصر لا يفقه معنى اللّون ومن فقد الشم لم يفقه معنى الرائحة وهكذا. إن الحس ينفعل عن المحسوس فتحصل فيه صورة. ولكن هذه الصورة تبقى مختلطة بالمادة من حيثيات و كيفيات ولواحق وغواشي ولوازم وجميع الأعراض المتعمقة بالمادة. مثال عندما انظر إلى زيد، تحصل عندي صورة عنه، تشمل الملابس التي يرتديها، وأين وكيف يجلس ... الخ. إذن حصول الصورة في الحس يتم عن طريق انفعال الحس بموضوع تلك الصورة، وبلواحقها من كم وكيف وأين ووضع . والحاسة هي مادة للمتخيلة تأخذ منها ما ارتسم من صور حسية لتعيد تحليلها و تركيبها من جديد بما يحاكي المحسوسات أو المعقولات التي تستلمها من القوة العاقلة. والقوة المتخيلة تتوسط بين القوة الحاسة والقوة العاقلة وهي مادة للعاقلة تغذيها وتزودها بالصور الحسية بعد تجريدها من لواحقها المادية. أما وظيفة القوة العاقلة فهي تجريد تلك الصور الحسية إلى معقولات كمية فتجرد الصور الحسية لأفراد جنس من الأجناس مثل أفراد الجنس الإنساني لبناء تصور كمي عن مفهوم الإنسان وهكذا مع المفاهيم الكمية المجردة الأخرى.

والعقل الإنساني ليس سلبيا في استقباله للصوّر الحسية فالقوة العاقلة هي التي تحرك القوة والعقل الإنساني ليس سلبيا الحاسة بتوسطه القوة النزوعية لاستقبال المحسوسات وهي التي تحّرك القوة المتخيلة للقيام بفعلها وهو بتجريد الصّور الحسية من لواحقها (**الكم والكيف والأين والوضع**). ويرى الفارابي أن القوى العاقلة لا تفعل بذاتها فهي عقل بالقوة تحتاج لكي تكون عقل بالفعل إلى من يخرجها من حالة الإمكان أي الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل وهذا هو دور ووظيفة العقل

الفعال .وقبل الحديث عن العقل الفعال نحتاج أولا توضيح مرتب العقل الفعال وهي تنقله معرفيا من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية والتي يصبح فيها العقل الإنساني عقلاً ومعقولاً بالفعل بحسب تعبير الفارابي.

فالمعقولات عند الفارابي أصناف منها معقولات هي في جوهرها عقول بالفعل ومعقولات بالفعل وهي الأشياء البريئة من المادة، لا تخلطها مادة مثل العلوم النظرية وكذلك معقولات ليست في جوهرها معقولة بالفعل مثل الحجارة والنبات كل ما هو مادة او شيء.

ان العقل البشري في بدايته مطبوع على التعقل- عقل هيولاني- وهو قابل للتعقل، فهو بمثابة قوة معقولة مثل بقية القوى في المادة- معقولات بالقوة- يمكن ان تصير معقولات بالفعل، لكن ليس في جواهرها مادة فهي لا تصير معقولات من تلقاء نفسها والأمر نفسه في القوة الناطقة، لا يمكن ان تكون عقلاً بالفعل من تلقاء نفسها بل تحتاج ان تصير عقلاً بالفعل إلى شيء آخر ينقلها من القوة إلى الفعل. وإنما تصير عقلاً بالفعل إلى شيء آخر ينقلها من القوة إلى الفعل. وإنما تصير عقلاً بالفعل إذا حصلت فيها المعقولات وتصير المعقولات التي بالقوة – مادة خام غير معلومة وتصبح معلومة أي مدركة - معقولات بالفعل وهي تحتاج إلى شيء آخر ينقلها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل.

والفاعل الذي ينقلها من القوة إلى الفعل هو ما جوهره عقل بالفعل، ومفارق للمادة، فإنّ ذلك العقل يعطي العقل الهيولاني الذي هو بالقوة عقل شيئا ما بمنزلة الضوء الذي تعطيه الشمس للبصر. لأن منزلته من العقل الهيولاني تماثل منزلة الشمس من البصر، فإن البصر هو قوة وهيئة ما في المادة وهو قبل من قبل ان يُبصر فيه بصر بالقوة والألوان من قبل أن تُبصر مًبصرة مرئية بالقوة ، معناه أن العقل البشري وإن كان قادرا على تعقل الأشياء بالطبع فهو غير قادر على تعقلها دون الانتقال إلى مرتبة العقل بالفعل، مثل الأشياء وان قابلة للإدراك فهي لا يمكن أن تدرك إلاّ بوجود قوة أخرى تسمح بذلك كضوء الشمس بالنسبة للألوان .

فليس في جوهر القوة الباصرة التي في العين كفاية في ان تصير بصرا بالفعل ولا في جواهر الألوان كفاية في أن تصير مرئية مُبصرة بالفعل، فإن الشمس تعطي البصر ضوءاً يضاء به وتُعطي الألوان ضوءا تضاء بها فيصير البصر بالضوء الذي استفاده من الشمس مُبصراً بالفعل وتصير الألوان بذلك الضوء مبّصرة مرئية بالفعل بعد أن كانت مبصرة مرئية بالقوة.

كذلك هذا العقل الذي بالفعل يفيد العقل الهيولاني شيئاً ما يرسمه فيه، فمنزلة ذلك الشيء من العقل الهيولاني منزلة الضوء من البصر.

العقل يعقل نفسه: العقل بالقوة يعقل العقل بالفعل الذي يعقل العقل العقل الفعّال

كما ان البصر بالضوء نفسه يبصر الضوء الذي هو سبب إبصاره ويبصر الشمس التي هي سبب الضوء فيه بعينه ويبصر الأشياء التي هي بالقوة مبصرة فتصير مُبصرة بالفعل، كذلك العقل الهيولاني فانه بذلك الشيء الذي منزلته منه منزلة الضوء من البصر، يعقل ذلك الشيء نفسه وبه يعقل العقل الهيولاني العقل الفعال الذي هو سبب ارتسام ذلك الشيء في العقل الهيولاني، وبه تصير الأشياء التي كانت معقولة بالقوة معقولة بالفعل، ويصير هو أيضا عقلاً بالفعل بعد أن كان عقلاً بالقوة.

هذا العقل المفارق هو الذي يؤثّر في العقل الهيولاني – العقل المنفعل- الذي اصبح عقلاً بالفعل لامتلاكه الحقيقة، ولذلك سمي بالعقل الفعّال.

علاقة نظرية الفيض بإشكالية التوفيق بين الفلسفة والدين:

اشكالية التوفيق بين الفلسفة والدين عند الفارابي أساسية للتداعيات التي تتركها على الفلسفة ومصيرها وكذلك على التراث الفلسفي، الذي وان بلغ أعلى درجات المعرفة يبقى إنتاجاً بشرياً لا يمكن ان يماثل مطلقية الدين، ولقد كانت نظرية الفيض التي توسل بها الفارابي مفتاحا لحل هذه الاشكالية، هذه النظرية التي بيّن من خلالها ان المعرفة الكاملة لا يبلغها العقل البشري الا باتصاله بالعقل الفعّال، حيث يلهم الله الناظر المتأمل بالحقيقة، ومنه تصبح تلك الحقيقة إلهية المصدر وتكتسي صفة

المطلقية، ولهذا يجب الوثوق بها لعدم وجود فرق بين ما يصل إليه الحكيم في مجال بحثه وما يوحى به على الأنبياء، ومنه يصبح كل ما يصل إليه العقل البشري بعد ان يصير مستفاداً ثمّ فعالاً يملك المطلق لكن ليس كل المطلق، وهذا يعطي المصداقية للمعرفة البشرية –الفلسفة بالخصوص- التي تتحقق بالاتصال بالعقل الفعّال الذي يحول ويمنع تعارضها الجوهري والدين وان كان هناك تعارض فهو ظاهري يرجع الى طريقة التعبير والتصريح التي يعتمدها الفلاسفة.